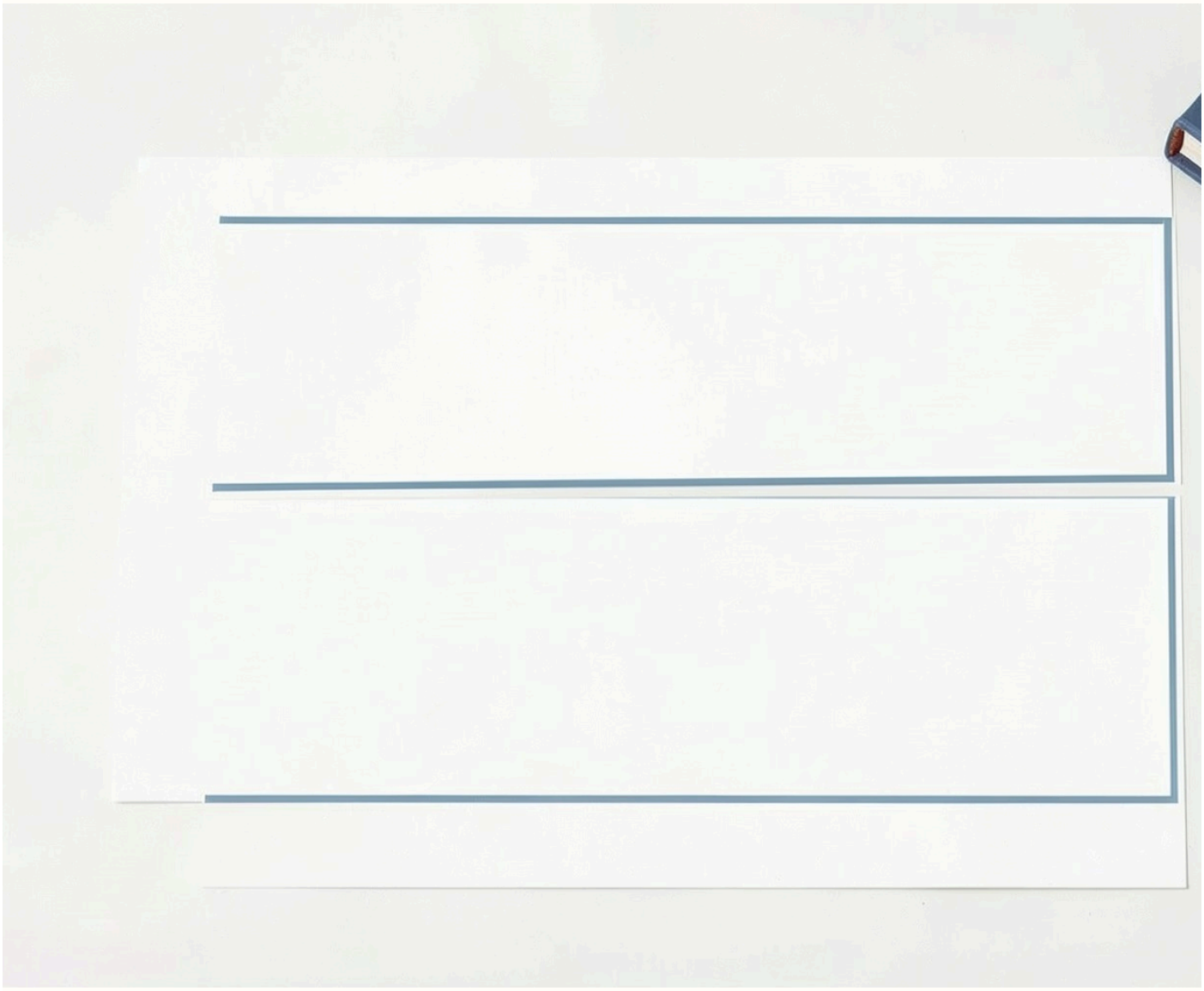
من التوصية إلى التحقق



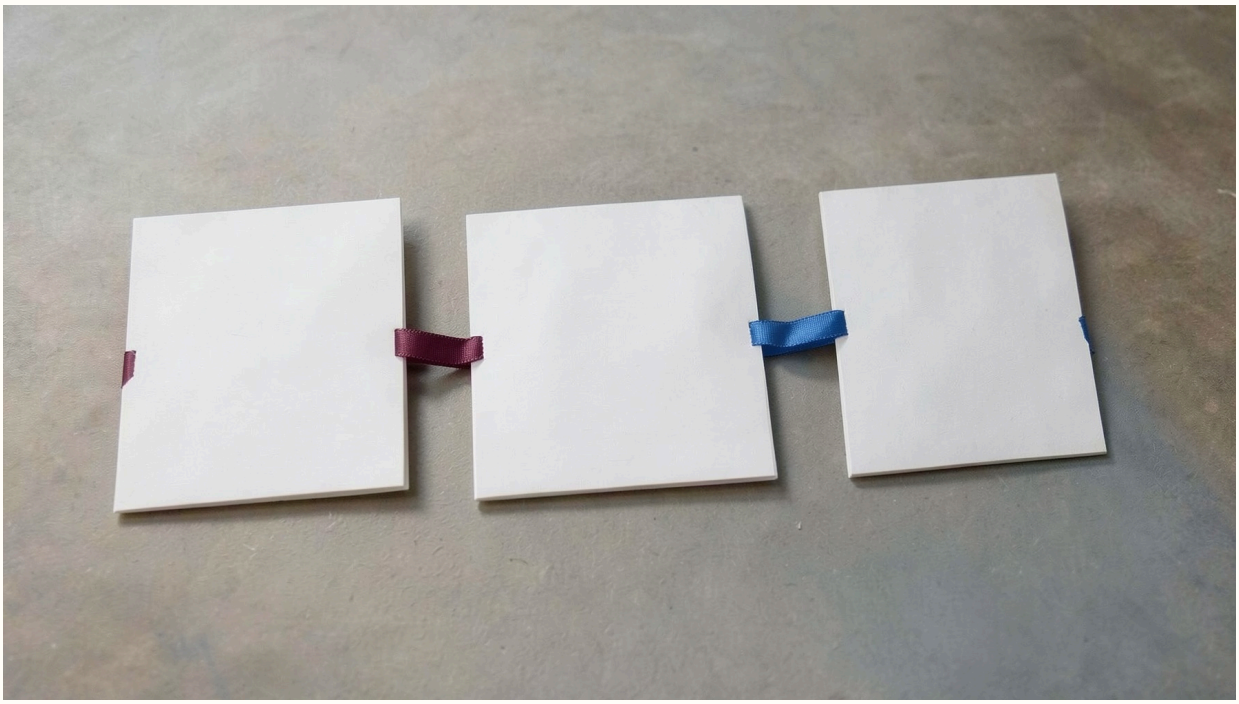
مدارج



قد ينصحك شخص تثق به بأن تقرأ خبرًا أو ترجع إلى كتاب. نصيحته تختصر عليك البحث، وتدلّك على باب ربما لم تكن تعرفه. فإذا أردت أن تنقل الخبر بعد ذلك، بدأ عمل آخر. عليك أن تعرف ما الذي وجدته في الكتاب، ومن الذي رواه، وهل يدل على الجملة التي تنوي كتابتها. قد تكون النصيحة نافعة ويبقى في الخبر موضع يحتاج إلى سؤال. تظهر هذه المسافة حين تكتب بيدك ما فهمته، ثم تعود إلى الأصل فتجد أن لفظه أضيق مما تذكره.

جرّب أن تتصور بطاقة قصيرة فيها ثلاثة أسطر. في الأول تكتب كيف وصل إليك الخبر. وفي الثاني تذكر الموضع الذي قرأته بنفسك. وفي الثالث تكتب السؤال الذي بقي بعد القراءة. قد تعرف اسم الكتاب قبل أن تعرف موضع الخبر فيه، وقد تجد الموضع وتحتاج بعده إلى فهم من تكلم ومن نقل كلامه. عندئذ يصح أن يبقى السطر الثالث مفتوحًا. ومن يقرأ بطاقتك يستطيع أن يرى أين انتهت معرفتك وأين بدأت حاجتك إلى السؤال، فيستطيع أن يتابع معك من الموضع نفسه.

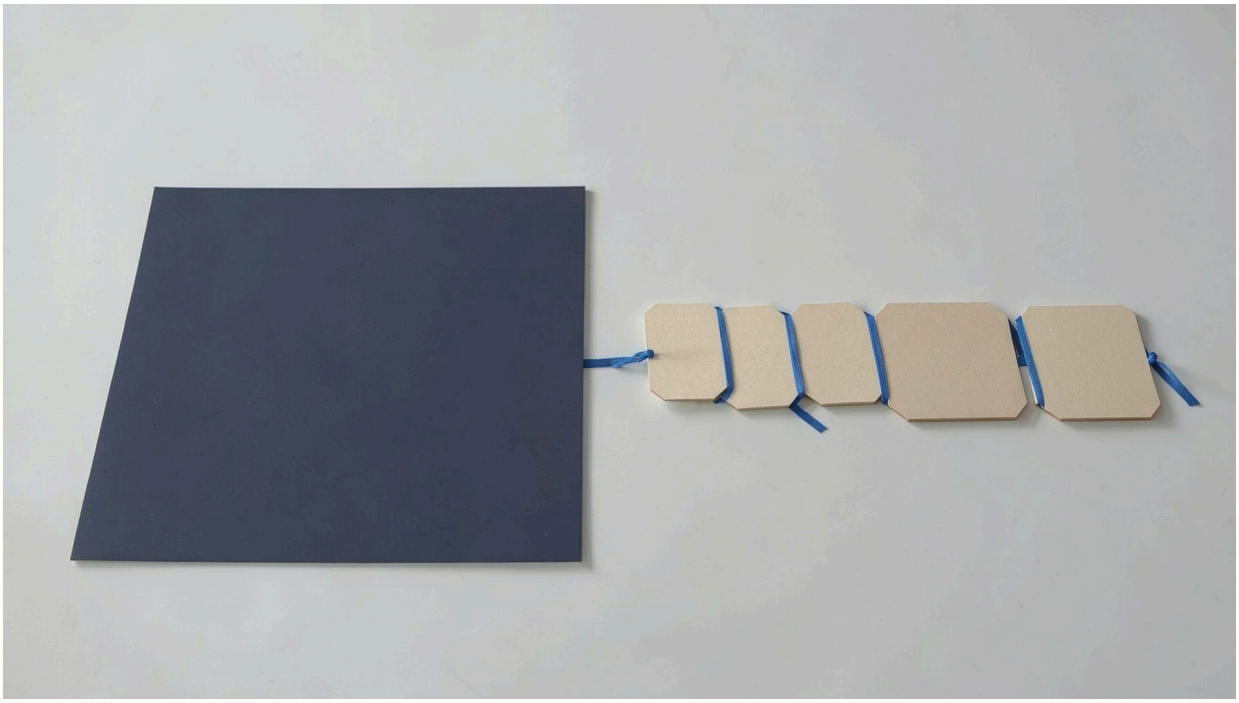
بهذا المدخل نقرأ خبرًا رواه أبو الوليد، وفيه ما يعيننا على التفكير في مسؤولية طالب العلم. نبدأ بتمييز من يروي الخبر عمن ترد أسماؤهم فيه. ثم ننظر في ترتيب الأفعال الذي يذكره الراوي، ونقف حيث يقف كلامه. وقد يثير النص أسئلة عن أمور لا نجد جوابها في هذا الموضع، فيبقى لكل سؤال قدره. وحين يأتي وقت أن تروي ما قرأت، ابدأ بجملة تستطيع أن تشير إلى شاهدها. تكفيك جملة واضحة واحدة لتبدأ قراءة أهدأ، يمكن لمن يسمعها أن يعود معك إلى أصلها.



يبدأ الخبر بصوت أبي الوليد. فهو الذي يصف كيف أفاده عبد الله بن المبارك أربعة أحاديث عن محمد بن جابر. تعرف من هذه البداية اسم من نقل الفائدة إليه، واسم من نُسب إليه أصل الرواية، والعدد الذي ذكره أبو الوليد. وهذه معالم تساعد على القراءة إذا بقي كل اسم إلى جانب الفعل الذي أسنده إليه النص. فالخبر عن عمل قام به أبو الوليد يرويه أبو الوليد نفسه، وفيه ذكر ابن المبارك ومحمد بن جابر. وقد يتشابه على القارئ موقع الأشخاص إذا قرأ أسماءهم وحدها وأسرع في المرور على الأفعال.

ثم يقول أبو الوليد، فيما رواه الفسوي، إنه أتى محمد بن جابر وسأله. خذ فعل السؤال وحده وتأمله. كانت لدى أبي الوليد فائدة وصلته عن طريق ابن المبارك، وكان يستطيع أن يكتب في وصفها من أفاده بها. وحين أتى محمد بن جابر صار سؤاله موجّهًا إلى الرجل الذي نُسبت إليه الرواية. هاتان خطوتان تميّز بينهما عبارة الراوي. ويعيننا هذا التمييز على تتبع ما سيأتي من الخبر، لأن معرفة صاحب السؤال تساعدنا على معرفة من سمع الجواب ومن يستطيع أن يصفه.

يمكنك أن ترسم أثناء القراءة خطّين قصيرين على الورقة. يبدأ الأول من ابن المبارك وينتهي عند أبي الوليد، ودوّن عنده أنه طريق وصول الفائدة. ويبدأ الثاني من أبي الوليد ويتجه إلى محمد بن جابر، ودوّن عنده أنه طريق السؤال الذي ذكره أبو الوليد. هذان خطان يرسمهما القارئ لفهم الرواية. ومن هذه الخطوة تستطيع أن تمضي إلى الجواب وفي يدك ما يضبط نسبته. تعرف الآن من أتى ومن سأل، ويمكنك أن تتتبع ما اختلف في وجه النقل.



الفرق الذي سجله أبو الوليد يتعلق بمن روى عنه محمد بن جابر. قد تُقرأ عبارة قصيرة عن اختلاف الرواية فيُظن أن الخلاف وقع في كلمة من متن الحديث. وفي هذا الموضع يوجّهنا كلام أبي الوليد إلى موضع آخر، هو وجه النقل. فالسؤال عند قراءة الأثر هو عن الشخص الذي نُسب إليه النقل، وعن صلته بمن يرويه. ومن هنا تبدأ المراجعة الدقيقة، بتحديد الجملة التي تتغير إذا تغيرت نسبة الرواية، قبل أن يكتب القارئ حكمًا يتجاوز تلك الجملة.

يساعد على ذلك أن تفصل في ذهنك بين المتن والطريق. المتن هو الكلام الذي يُروى، والطريق هو سلسلة من يُنقل ذلك الكلام عنهم. قد ترى عبارة متشابهة في نقلين، ثم تجد أن كل واحد منهما يذكر طريقًا مختلفًا إليها. وقد يختلف النقلان في جزء من الكلام أيضًا. هذه احتمالات عامة في قراءة الأخبار، وما يهم هنا أن الأثر الذي بين أيدينا يذكر الاختلاف في وجه الرواية من غير أن يسوق متون الأحاديث الأربعة. لذلك تظل المقارنة مقصورة على الموضع الذي عيّنه الراوي.

ويظهر أثر هذا التحديد عند صياغة ما فهمناه. نستطيع أن ننسب إلى أبي الوليد أنه وجد اختلافًا فيمن روى عنه محمد بن جابر، ونرد هذه الجملة إلى موضعها عند الفسوي. أما تعيين أسماء لم يذكرها الخبر أو شرح أثر الاختلاف على صحة كل حديث، فيحتاج إلى شواهد أخرى. تبقى بين أيدينا ملاحظة محددة يمكن للقارئ أن يرجع إليها ويتثبت منها. ويبقى السؤال الذي تدفع إليه الملاحظة في ترتيب الحكاية، وهو كيف تعامل أبو الوليد مع الاختلاف بعدما تبين له موضعه؟



يروي أبو الوليد أنه أتى عبد الله بن المبارك وأخبره بما وجده. بهذه الخطوة عاد الإشكال إلى من نقل الفائدة أول مرة، فأمكنه أن يجيب عما بلغه. يوجز الأثر ما جرى بينهما، فيحفظ فعل الإخبار والجواب الذي تلقاه أبو الوليد، ويترك تفاصيل اللقاء خارج الرواية. يكفي هذا القدر لفهم موضع الرجوع في الحكاية. فقد انتقل أبو الوليد من ملاحظة اختلاف في النقل إلى إبلاغ من أخذ عنه، وأمكنه بعد ذلك أن يصف ما سمعه منه في شأن الخطأ.

وينقل أبو الوليد جواب ابن المبارك الذي تضمن الحكم وذكر الغلط في تلك الرواية. وهنا تلزم عناية خاصة بنقل الضمير. فالعبارة المحفوظة تتحدث عن الغلط بلفظ الغائب، وتحويلها إلى إقرار من ابن المبارك بأنه أخطأ يضيف معنى لا تثبته. نستطيع أن نذكر أنه أجاب وحكم على ما بلغه، وأن نرد كلامه إلى نصه. وإذا احتاج فهم مرجع الضمير إلى بحث، أبقيناه سؤالًا ظاهرًا. يحمي هذا التوقف نسبة الكلام إلى صاحبه، ويمنع أن نغيّر دور أحد الأشخاص ونحن نلخص الخبر.

ويختم أبو الوليد خبره بذكر المحو. الفعل فعله هو، وبذكره نعرف كيف تعامل في هذه الواقعة مع ما كان قد دوّنه. ولا يصف النص هيئة المكتوب أو ما جرى للأحاديث في طرق أخرى. وفي قراءة هذا التصرف اليوم يمكن أن نسأل عن مسؤوليتنا حين يتبين خلل في مادة نهيئها للنقل. قد يتغير ما نكتبه أو ما نحتفظ به للاستعمال، ويظل علينا أن نحدد سبب التغيير بالقدر الذي يتيحه الدليل. وهنا يفيدنا الأثر في تعيين من أخبر ومن أجاب ومن محا.



بعد قراءة الخبر، قد تجد في ذهنك صورة أوسع من عباراته. ربما تتصور المكان الذي جرى فيه اللقاء، أو تتساءل عن شعور من اكتشف الخطأ. تنشأ هذه الأسئلة من رغبة مفهومة في تقريب الماضي، لكن الجواب عنها يحتاج إلى مادة تحفظها. حين يوجز الراوي، تبقى بعض التفاصيل مجهولة لنا، ويكون من الدقة أن تظهر هذه المساحة في قراءتنا. نستطيع فهم التسلسل الذي وصفه من غير أن نزعم رؤية المشهد كله، أو نضع على لسان أحد كلامًا لم يُروَ عنه.

ومن المهم أيضًا أن نميز بين ثبوت نص في كتاب وبين تقويم الخبر الذي يحمله. الوصول إلى موضع في كتاب الفسوي يتيح مقابلة الألفاظ والتأكد ممن نسب إليه الكلام في ذلك الموضع. أما الحكم التفصيلي على أسانيد الأحاديث الأربعة أو متونها فيتطلب التعرف إليها وجمع مادتها وفحصها. هذه أعمال لها أسئلتها وأدلتها، ويحتاج إصدار الحكم إلى إنجازها. بهذا التفريق تأخذ الإحالة فائدتها الحقيقية، فتدل القارئ على موضع يمكن مراجعته، ويظل الاستنتاج محددًا بقدر ما استُخرج من ذلك الموضع.

ولنقرب المعنى إلى قراءة معاصرة، تخيل أنك تحرر تقريرًا مدرسيًا وتجد مصدرًا يذكر أن صاحبه عدّل معلومة بعد الاستفسار عنها. هذا مثال نفترضه للتفكير، وتفاصيله من وضعنا. يمكنك أن تصف التعديل الذي حفظه المصدر، ثم تبيّن الأسئلة التي تحتاج إلى بحث آخر. فإذا أردت إضافة سبب للتعديل، وجب أن تبحث عما يدل عليه. هنا يصير الفصل بين المعلومة والتفسير عملاً ظاهرًا في الكتابة نفسها، فيعرف القارئ ما نقله المصدر، وما اقترحته أنت لفهمه، وما بقي بلا جواب.



لتجرب هذه القراءة بنفسك، اختر فقرة قصيرة من كتاب متاح لك، وافتح إلى جوارها صفحة بعنوان «ما الذي تحققت منه؟». ابدأ بجملة واحدة تريد الاستفادة منها، واكتبها كما فهمتها بكلماتك. ثم دوّن اسم الكتاب ومؤلفه والجزء والصفحة والطبعة التي قرأتها. إن كنت تقرأ ملفًا مصورًا، فاذكر رقم صفحة الملف أيضًا، فقد يختلف عن الرقم المطبوع. هذه البيانات تعينك على العودة إلى الموضع نفسه، وتعين قارئك على معرفة المادة التي بنيت عليها عبارتك حين تراجعانها معًا في وقت لاحق.

اقسم بقية الصفحة إلى ثلاثة مواضع. في الأول ضع العبارة التي وجدتها في المصدر وما يدل عليها من سياق. وفي الثاني اكتب الفكرة التي استنبطتها منها، واشرح الصلة بينهما. وفي الثالث سجّل سؤالًا لم تجد له جوابًا بعد. جرّب الآن أن تقرأ استنتاجك وحده، ثم ارجع إلى شاهدك. هل يحمل الشاهد هذا المعنى؟ هل يتحدث عن شخص بعينه بينما جعلت عبارتك الحكم عامًا؟ وهل نقلت فعلًا إلى شخص آخر؟ إذا ظهر فرق، فعدّل جملتك ودوّن سبب التعديل بجانبها.

وعندما تعود إلى قصة أبي الوليد، يمكنك ملء هذا السجل من الصفحتين اللتين قرأتهما ومقابلتهما بموضع الفسوي. سيظهر لك ما نسبته إلى الرواية وما أضفته من تفسير، وتستطيع أن تترك التعرف إلى متون الأحاديث الأربعة ضمن الأسئلة المحتاجة إلى بحث. احتفظ بتاريخ المراجعة وبالعبارة التي صححتها، حتى تفهم بعد مدة كيف تطورت قراءتك. وقد تجد لاحقًا شاهدًا يجيب عن سؤال مفتوح أو يقتضي تصحيح فهم سابق. عندئذ يبدأ سطر جديد في السجل، ومعه إحالة يمكن العودة إليها.